# أُعلِّم طالباتي بالشغب القديم

منار زيد

**أهو القدر أم الصدفة أم القانون المنساب بينهما ما جعلني أصبح معلمة؟ هل هبطت من السماء إشارات ومعانٍ تقودني إلى هذه المهنة؟ هل كانت كل ما أخطط وأحلم؟ (لا) هي إجابتي.**

فقد كانت تبعد مسافة مائة سنة ضوئية، على الرغم من أن أمي وأغلب أقاربي امتهنوها، ولكنها لم تستهوني إلا لاستغلال أطفال العائلة وخلق جو من الدكتاتورية والسلطة المطلقة، إذ كانت صورة المعلمة كائنة مكوكية تأمر وتنهى، بيدها الكبيرة ترسم خمسة أصابع على الوجنات، وبعينيها ترسل سهاماً قاتلة تسبب رجفة وتعرقاً مفرطين كان يصل لدرجة التبول اللاإرادي عند البعض. لم تكن كائناً حياً، كانت شيئاً كبيراً ضخماً على الاستيعاب عصياً على الحب، صاحبة العيون الأربع والقرون الاستشعارية، لم نتخيلها تأكل أو حتى تتنفس.

كل هذه العوامل والصفات ظلت مصاحبة للبعض حتى الإعدادية، وحينها اكتشفنا لأول مرة أنها كائن قابل للتزاوج والإنجاب والإحاطة بجيش من الزميلات على ابنتها المعصومة من الخطأ، ومن النزول عن لوح الشرف. كانت تلك حقائق مرعبة، ولكن بالمقابل لم نكن قد محونا عنها درجة القدسية، لم أخالف أمراً أو أغامر بإلقاء طبشورة على معلمة، ولم أنضم لأيٍّ من الفئات (الضالة) الكثيرة الزيارة للمديرة.

كنت بعكس الجميع أخطط لأن أكون طبيبة أو مخترعة أو أي شيء يضمن لي الحصول على أداة للتغيير. ففي يوم، وبعد أن قمت بقلع سن لبني لأحد أطفال العائلة، قررت أن أكون طبيبة أسنان، ورحت أرسم خرائط وأشكالاً وأخبر الكل عن طموحي، وتلقيت دعماً من عائلتي الصغيرة، أما الكبيرة فغمرتني بسوداويتها وتشكيكها. مرت المرحلة الإعدادية بتفوق، والثانوية بكسل ولكن بتفوق أقل قيمة، وبعدها استنزفت قواي كلها بالأحلام والتمني وتخطيط جدي لمستقبل يحطم كل ما هو تقليدي ومملّ، وفي نهاية اليوم كنت أصاب بالإرهاق وأنام والكتب هي الأخرى تنام معي.

لم أكن أحمل أيّاً من مقومات المعلمة التي لطالما كانت تعرّف عن نفسها بأنها متفوقة بنت متفوق أخت متفوقة، وبأنها أمضت ليالي وسهرت تحت ضوء إنارة الشارع لتدرس، كنت مغرمة بالتعليم وبالثقافة، ولكن من بعيد إذ كنت كثيراً ما أتأخر في المكتبة العامة أطالع، وأرجع إلى البيت لأنال قسطاً وافراً من التوبيخ وخطوطاً عريضة تخطها العصا على أطرافي لمبالغة أمي في الحب والخوف معاً، وبعدها نضجت طرقي وأصبحت اصطحب الكتب وأخفيها داخل كتبي المدرسية وأتظاهر بالدراسة بينما أكون أطالع، ولكن حبل الكذب كان قصيراً جداً. لم أكن أحب خوض تجربة الإرهاق الدراسية أو أن أكون جزءاً من تلك الفئة الكبيرة الدماغ اللئيمة الملامح. لم يكن حلماً ولكن كنت دائمة التخيل بما يجب أن تكون عليه المعلمة، كنت أرسم صوراً مثالية لمعلمة رقيقة تسمعنا وتبادلنا الحوار وتشاركنا النكت الساذجة.

ولكن جاءت لحظة الحقيقة، وظهرت نتيجتي، وكانت الصحوة، لم يكن أمامي إلا كلية العلوم، ولكني وكعادتي بدأت أنسج

وأحيك مستقبلاً مشرقاً ومجموعاً سيؤهلني لكلية الهندسة، أو علم الجينات، لم أكن أريد أن أكون تقليدية، ولم تكن تمثل المعلمة إلا كل شيء تقليدي، كنت بارعة في إنشاء العلاقات والصداقات وخلق لحظات تبعدني عن الجو الجدي لكلية العلوم الملقبة بمقبرة الجامعة، استمتعت بلحظاتي جميعها إلا اللحظة التي علمت فيها بأنه سيتم ترحيلي من الكلية لتقصيري، كان البديل إما اللغة الإنجليزية أو التجارة، فاخترت التجارة مع علمي المسبق بأني سأجتاز تخصص اللغة الإنجليزية بسهولة، ولكني لم أرد أن أكون على قدر التوقعات الساذجة القائلة إنها ستكون معلمة لغة إنجليزية كأمها، وإنها لن تفلح بغير هذا التخصص، لقد كان كلامهم مستفزاً لدرجة أني استنزفت سنة دراسية كاملة في تخصص لم أشعر بالحميمية والقرب اتجاهه. أن أكون معلمة يعني أن أكون المتسلطة المتحكمة بمصير طالبات متعلق بلون أحمر حقير في الشهادة النهائية، أو زوال» شبرة» عن قبة طالبة كانت فخراً لها ذات يوم، والآن أصبحت مذلولة كرئيس مخلوع. وأن أكون معلمة لغة إنجليزية يعني أن أضرب ظلماً وتعسفاً، فقد ضربت مرتين طوال حياتي الدراسية، وكلتاهما من معلمتين للغة الإنجليزية إحداهما أمي، ولكن السبب كان الشغب الجماعي، وبالتالي العقاب الجماعي الذي اشتد حالما أتى دوري لتسقط عنها شبهة أنها أمي وأنها عادلة. أما الأخرى الأكثر إيلاماً، التي كانت في الصف الخامس الابتدائي أول سنة نتعرف فيها على اللغة الإنجليزية، إذ كنا نهجئ الحرف (M)، واتهمت المعلمة أحدنا بالتنشيز، وقبل أن أستوعب ما قالته كانت يدها قد انهالت على رأسي وأخذت تأرجحه في الهواء ككرة وتشد شعري للأمام والخلف وتجردني من شبرتي الحمراء العزيزة، وأعاقب بالوقوف بجانب سلة المهملات طوال الحصة، أخذت أبكي بحرقة وعرفت بعد أن أنهيت المرحلة الدراسية أني لم أكن مخطئة، بل كانت مسألة عالقة بينها وبين أمي سوتها وكنت الضحية.

تغيرت الجامعة وتغير التخصص إلى الإنجليزية، وشعرت لأول مرة في حياتي بأني في القمة، قمت بتدريس طلاب جامعيين في الغالب كانوا يكبرونني سناً، شعرت بقوة وسلطة وحب أكبر من كبير للمهنة، وتوالت الصدف الجميلة وصرت جزءاً من تعليم يرفض كل ما هو تقليدي، ويقلل من أهمية المسلّمات والإجابات الجاهزة، ويفتح آفاقاً غير محدودة للخلق والإبداع، فكان «القطان» سبباً آخر وراء تعلقي بالتعليم، ورغبتي في إشباع فضولي وفضول طلابي بطريقة تجذبهم للمعرفة.

وجاءت اللحظة التي دخلت فيها المدرسة التي عينت فيها، اختلط شعوري بالرهبة، ولكن أيضاً بالرغبة. في أول يوم وقعت بحب الطالبات وشعرت بمسؤولية عظيمة بوجوب إعطائهن اللغة والحياة والقيم معاً، لم أكن تقليدية، وكنت أتعلم أكثر من كوني أعلّم، لم أخشَ قول إني لا أعرف وإني سأبحث، ضحكت عندما رأيت أوراقاً صغيرة خلف ورقة الامتحان سحبتها بهدوء، وبانشغال فتيات بالكتابة كنت على يقين بأنها أخر أغاني تامر حسني أو رسائل سرية تتسلل من بين الأرجل. وطعام مخفي بحكمة داخل علب الأقلام. كنت أراني. وكنت أضحك كنت أغضب ولكن كنت أعتذر. كنت أضحك وأضحكهن معي، كنت أشعر برغبة ملحة في عناقهن نهاية الفصل الدراسي.

يجب أن أعترف أني أعشق مهنتي وأراني صاحبة أكبر قدرة على التغيير، بيدي أصنع سياقات تنمو فيها العقول الغضة، وأحقق مع طالباتي مهام يتنامى من خلالها فضول ملح، وتبقي لدي معالم تنتظر مني أن أكملها، طريقي مقدسة وحماسي أكبر من أن تحتمله جدران مدرسة، عقبات تقليدية إدارية تبرز بين الفينة والأخرى، ولكن شغبي المسحوق أيام دراستي أخرجه، وتمردي أنقله لهم، أحضر مصلاً يومياً من الثقة والإيمان، من العبر والمعرفة، من التساؤلات والقضايا المعلقة وأصله بوريد طالباتي. لم أقل إنها مهنة بسيطة خالية من المشاكل والإرهاق، بل مليئة، وباللون الذي يناسب ذوقك. فمع انتقالي لمدرستي التي خرجت منها طالبة ورجعت بجانب معلماتي زميلة، وعلى عكس توقعاتي ازدادت المشاكل وازداد شعوري بالضعف لكوني الأصغر سناً، ولكون الغالبية كن معلماتي، فكان متنفسي الوحيد طالباتي، وصدقوني إنهن عالم آخر غض يحاول النضوج، وينتظرن ما كنت أنتظره، فقطعت عهداً بتزويدهن ما كنت أفتقر له وأتمناه، وسقطت القواعد الذهبية والإرشادات العامة التي تلقيتها لكي أكون سيدة صفي وأبث الرعب داخل قلوبهن، لقد ملكتهن ولكنهن بدورهن ملكنني، مع أن الظروف كانت سيئة، وكمية الحصص والواجبات كانت أكثر من ضاغطة، إلا أنني أسمع، أسمع طالباتي، أسمع، وأستمتع . . وأستمتع . . وأستمتع.

**مدرسة بنات أبو علي إياد الثانوية**

من فعاليات المساق التأسيسي (الدراما في التعليم) 2011–2012.